جريمة حُب

البديع العربي

مجموعة قصصية

نور الدين البرقاشي

جريمة حُب

نور الدين البرقاشي

(نور الدين حلمي)

مجموعة قصصية

جريمة حُب
نور الدين البرقاشي
(نور الدين حلمى)

رقم الإيداع: 26598 - 2023
الترقيم الدولي: 978-977-94-7763-3

إن الآراء الواردة في هذا المصنف لا تعبر بالضرورة عن آراء وتوجهات الناشر وإنما تعبر عن رأي المؤلف فقط.

يمنع نشر أو نسخ أو ترجمة هذا المُصنف أو جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافي و التسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها المعلومات واسترجاعها بدون إذن كتابي من المؤلف طبقاً لقانون حماية الملكية الفكرية رقم 82 لسنة 2002 والقوانين المماثلة لها.

الإهداء

إلى نفسي أُنساً لوحدتي.

نور الدين حلمي

□□ مشاعر

تفتحت عيناه، فوجدها ماثلة أمامه بوجه طلق بشوش، كأنها قمر سطع على غير العادة في الصباح الباكر، ألقت عليه تحية الصباح، وابتسامة الرضا تزيد وجهها نضارة ونوراً وجمالاً، وكلمات الحب تنساب من ثغرها الجميل، ولمسات الحنان راحت تشعر جسده بالنشاط والحيوية والأمل والتفاؤل، حملق في وجهها البهي، ولسان حاله يرتل آيات الحمد والشكر، أن وهبه الله هذه الإنسانة التى كما يعتقد هو لا يوجد في حُسنها أحد، وأثناء استرساله في التفكير، طلبت منه بصوتها الحريري العذب، أن ينهض ليستعد لحضور حفلة تكريمه وتتويجه، كرئيس للجامعة، وشرعت بعدها في إحضار بذلته الزرقاء التى اشترتها له خصيصاً

لحضور هذه المناسبة السعيدة، وكعادتها كل صباح فإنها تحرص بقلبها المعطاء أن تلبسه ملابس العمل، وتضع له عطره المفضل، وتضبط له رابطة العنق، وما تنفك عنها هذه الابتسامة العريضة أبداً، ولا هذه الكلمات التى تفوح منها رائحة الحب والإخلاص والوفاء.

وفور انتهاءها طلبت من الأبناء، ونشوة العصفور في عينيهـا، التوجـه إلى السـيارة لحضـور حفلـة تكـريم والدهم.

ما إن وصلوا إلى قاعة التكريم بالجامعة حتى ضجت القاعة بالتصفيق من هذا الجمع الكبير، الذي حرص على الحضور منذ الصباح الباكر؛ لتقديم التهنئة لشخص أحبوه من قلوبهم، بعيداً عن النفاق والرياء،وما إن بدأت مراسم التكريم، وتقدم السيد رئيس الجامعة الجديد؛ ليلقي كلمة يحدثهم فيها عن مشوار نجاحه، وما بذله من جهود كبيرة؛ ليتبوأ هذه المكانة العلمية الرفيعة، وفي طريقه للمنصة علت

أصوات التصفيق مرة أخرى، بعد مقدمة بسيطة عن شخصيته الطيبة وأدبه الجم، وزوجته وأولاده ينظرون إليه بدموع الحب والفرح والاعتزاز والافتخار، وما إن اعتلى المنصة، وسط مجموعة من كبار الأساتذة من مختلف الكليات بالجامعة، وأمسك بمكبر الصوت، والجميع آذانهم مصغية، كأن على رؤوسهم الطير، يتشوقون لسماع قصة نجاحه، حتى ينهجوا نهجه، ويسيروا على دربه لتحقيق ما تصبوا إليه نفوسهم المتشوقة لمثل هذا النجاح.

شرع في إلقاء كلمته المنتظرة بتقديم الشكر والتقدير لكل من ساهم وعمل وساعد لتكريمه، ثم صمت قليلاً كمن ضاع الكلام منه، وهو ينظر ناحية زوجته، والحضور يحملقون إليه متعجبين من صمته المفاجئ، وزاد تعجبهم عندما ترك مكبر الصوت ونزل من على المنصة، وحالة الدهشة والتعجب هى لسان حال القاعة المكتظة بالحضور، وهم يشاهدونه يتجه إلى

آخر القاعة، ومنديله المعطر يكفكف به دموع يصعب عليه تغلبها، واتجه نحو زوجته وحبيبته المخلصة، وانحنى أمامها مُقَبلاً يديها أمام الجميع، لتشتعل القاعة بالتصفيق لهذا الفعل اللافت للأنظار، وهو يشير إليها بصوت متقطع بالبكاء، إن هذه المرأة العظيمة هي سر نجاحه.

كان لهذا الفعل المرهف الذي قام به رئيس الجامعة، والذي يعبر عن مشاعر جياشة، ورِقة مطلقة، وعطف فياض وحُب صادق، كان له أثر كبير على الحضور خاصة النساء، ما حدا ببعضهن إلى الهمس في أذن زوجها :انظر كيف يحب زوجته؟ وكيف يعتز ويفتخر

بها أمامنا؟ لو كنت مكانه هل كنت ستفعل هذا معي؟ وكانت الإجابات متفاوتة من أزواجهن ومتقاربة أيضاً، كلها تتسم بالهروب عن الإجابة تارة، وبإجابات كاذبة تارة أخرى.

إستجابة لنداء مقدم الحفل البهيج، صعد الرجل المنصة مرة أخري؛ لإلقاء كلمته بعد فاصل من الحنين بينه وبين زوجته وحبيبته، التى سالت دموعها بشدة كردة فعل لصنيع زوجها، وبدأ صاحبنا كلامه بعد أن مسح دموعه المنهمرة، والكل يحدق في وجهه؛ ليخبرهم أن طريق النجاح لا شك وأنه ملئ بالأشواك وبالعقبات، وهذا بصفة عامة، غير أنه يشكر الله ويحمده لأنه سبحانه سخر له من كانت سبباً في تنحية الأشواك والعقبات عن طريقه، بل وفرشته بالورود والزهور الجميلة، وهي هذه المرأة العظيمة التى قبلت يديها أمامكم زوجتي ولي الفخر.

دوت القاعة بالتصفيق لكلمات الحب الجميلة المعبرة عن مشاعر جياشة صادقة، وأعينهم تنظر إلى قائلها تارة، وإلى المقصودة بالكلام تارة أخرى، والتى عاودت البكاء لكلمات لم تكن تظن أنها ستسمعها في هذه

المناسبة، ويكمل صاحبنا الكلام قائلاً إن مثولي أمامكم اليوم لأنال شرف تكريمكم لي، وحفاوتكم بي، لم يكن ابدأ ليكون لولا هذه المرأة المعطاءة التى وهبتنى عمرها، وضحت بنفسها من أجل نجاحاتي، وتحقيق طموحاتي، رغم ما كلفها ذلك من جهد وتعب لم أشعر بـه أبـداً، وأنـا أسـمعها دومـاً تنشـد قصـيدة الرضـا، وابتسامتها الجميلة تسبق كلماتها.

يتهامس بعض الأزواج من الحضور حين قالت لزوجها انظر إلى كلامه البلسم، وكيف هو يحب زوجته، وتردف بسؤاله متى أسمع منك مثل هذا الكلام الجميل؟ وكان منهم من يجيب بعد أن ضاق ذرعاً بكلام زوجته قائلاً عندما تكوني مثل زوجته وحبيبته، وتتصفين بأوصافها الجميلة، ولكن هيهات هيهات !! وسرعان ما يعاود الأزواج سماع قصة الحب التى أكملها صاحبنا منشداً، إنني أيها السادة عشت مع زوجتي الحبيبة عمراً طويلاً، ما أتذكر يوماً أنها أغضبتني،

أو حتى عاتبتني على فعل شيء ولا أذكر يوماً رؤيتها من غير ابتسامة عريضة مرسومة على وجهها الأنور، ولم أسمع منها كلاماً غير ما أحب سماعه من شكر النعمة، وترديد الدعاء أن يديم الله محبتنا، ويظل الحب والطمأنينة هما الهواء الذي نستنشقه معاً.

ويستطرد قائلاً: لعلكم تتعجبوا مما سأذكره عن زوجتى، الفاضلة وكيف تتفنن في إسعادى ونجاحي، ولو على حساب نفسها، فكان مقرراً أن أناقش بحثاً مهماً باحدى الكليات، وكانت زوجتى تشعر بمغص كلوى شديد، وظلت ليلتها تتألم بشدة دون أن تخبرني رغم حاجتها للذهاب إلى الطبيب، حتى يتسنى لي مناقشة البحث بنجاح.

لا يفوتني أيضاً أن أشكر أبنائي، وكم أنا أعتز وأفتخر بهم، على ما يكتنفهم من صفات جميلة، وقيم نبيلة زرعتها وغرستها فيهم زوجتي الحبيبة، التى لم تقصر يوماً في العمل على راحتهم وتنشئتهم على القيم والمبادئ.

فكانت مدرسة من مدارس شوقي، حين نعتها بهذا الوصف المعبر، وكانت أيضاً تكذيبا وتفنيداً لموروثات ثقافية خاطئة، توحي بعدم قدرة المرأة على تخريج جيل قويم قادر على البناء والعطاء.

السادة الحضور هذه هي قصة نجاحي، تمثلت في زوجة عشت مع صفاتها الرائعة، هذا الحديث الشريف بكل معانيه الرقيقة والرقراقة، الدنيا متاع وخير متاعها زوجة صالحة، ليكون هذا التكريم هو في الحقيقة ومن باب الإنصاف، تكريماً لها، أشكركم جميعاً على شعوركم الطيب الجميل، وحسن سماعكم، وأشكرك زوجتى وحبيبتي على كونك سبب تقليدي هذا المنصب، وكونك سبب سعادتي الدائمة، فأقول لك : أحبك.

* * * * * *

□□كاميليا ..

رغم أنه موظف بسيط بإحدى المصالح الحكومية التي يتقاضى العامل فيها راتباً شهرياً لا يُسمن ولا يُغني من جوع، ورغم كثرة من تقدموا لخطبتها، مصطحبين معهم من الصداق الذهب النفيس، والحرير الناعم، والفُرش الوثيرة، إلا أن كاميليا اختارته راضية ليكون زوجاً لها، قابلة منه هذا المهر الغالي، المتمثل في أخلاقه العالية، وسُمعته الطيبة، غير عابئة بضوابط اختيار الزوج التي تتبعها قريناتها من بنات حواء، والتي تنصب بصفة أساسية أن يكون الزوج ثرياً. لتبدأ كاميليا حياتها الزوجية، وهي تتفنن في إسعاد زوجها، فتطعمه الحب، وتسقيه الحنان، وتشعره دوماً بالراحة والاطمئنان. إذا نظرت إليه تنطلق من عينيها الجميلتين نظرات الوفاء، وإذا كلمته تنساب من فمها عبارات رقيقة تُعطر الأجواء، وإذا صمتت ترتسم على شفتيها ابتسامة الأمل التي تُذهب الشقاء، ويعلو وجهها نور كأنها قمر ساطع وسط السماء، وإذا تحدث هو إليها،

فكلها آذان مصغية، تستمع إليه وكأنه كروان يغرد بأغاريد الفرح والسرور، أو كبلبل يصدح بتلك الأنشودة الجميلة التي تطرب لها الآذان، وتبتهج لها القلوب والأبدان، وإذا غاب عنها غاب عقلها، وتبدد تفكيرها.

إذا خرج من البيت يوماً نظرت إليه نظرة مودع، وكأنها لن تراه ثانية، وحين يعود تنظر إليه نظرة الأم التي غاب عنها ابنها سنوات طوال، ثم رأته فجأة بعد طول غياب. تُحب ما يُحب، وتكره ما يكره، دائمة الشفقة عليه، والحنين إليه، يتملكها الخوف عليه من لحظة خروجه إلى عمله حتى يرجع. فهي تخشى عليه شدة الحر في الصيف، وقسوة البرد في الشتاء. عند عودته من عمله تتطاير الفرحة من عينيها، ولا تعتقد أنها وحدها التي تفرح بقدومه، بل إنها ترى الفرحة تغمر بيتهما المتواضع. ترى الفرحة في ملابسها التي ترقص فرحاً بمجيئه، تراها في الجدران المتهالكة التي تزينت

بلوحات السعادة والسرور، تسمعها وتراها في أصوات العصافير على شجرة التوت العتيقة أمام منزلها، تراها في لذة هذا الطعام، الذي تتناوله معه، وغالباً ما يكون من الخبز والجبن، ورغم ذلك تُشعره أنها تتناول ما لذ وطاب من الطعام، وتشمر دائماً عن ساعد الجد لإسعاده، فتكون له نِعم الخادمة بالنهار، وبالليل تكون شهرزاد الراوية، التي تحكي له ما يُحب سماعه، وتناقشه فيما يشغله من أمور. وعند زيارتها لأهلها، يضعون أمامها أشهى الأكلات المكونة من اللحم الشهي، والطيور الطازجة، فترفع ممتنعة عن تناول الطعام، وهي تخبر أهلها أنها ملت من تناول هذا النوع من الطعام في بيت زوجها، رغم أن نفسها تتوق لتناول مثل هذه الأكلات الشهية، التي لا تتناولها إلا في الأعياد تقريباً. لكنها تريد إظهار زوجها في صورة الكريم الذي يحب أهله ، والذي يغدق عليهم بوافر كرمه ومحبته.

يعرب زوجها عن أمله أن يتحسن مستوى المعيشة التي يعيشونها، فتخبره بمشاعرها الجياشة، وعواطفها الصادقة، أنهما أفضل بكثير من غيرهما. ثم تحذره بحب من أن ينحرف عن درب الشرفاء، ويسير في طريق السفهاء، الذين يأكلون الحرام بأخذهم الرشوة، وهم يعتقدون أن السعادة في جمع المال سواء من الحلال أو من الحرام، والواقع يشير إلى أن هذا المال الملوث هو سبب تعاستهم. كانت له الناصح الأمين، والمُحب المعين، كثيرة الشكر لله أن وهبها هذا الإنسان.

هذه بعض صفات كاميليا التي رحلت عن الدنيا، مصطحبة معها سر رحيلها، وهو هذا المرض العضال الذي لم تخبر به زوجها، حتى لا يحزن أو يُحَمل نفسه أعباء ونفقات الدواء. وبعد وفاتها ببضعة أشهر تزوج بأخرى، ليرتكب هذا الخطأ الفادح، ليس لزواجه بعد وفاة زوجته، ولكن لاعتقاده الخاطئ أن الزوجة الأخرى قد تكون مثل كاميليا، ولكنها على النقيض تماماً كتناقض الليل والنهار. استطاعت وببساطة أن تُريه

النجوم وقت الظهيرة، ليذوق طعم الحزن، الذي لم يعرف اسمه طيلة حياته مع كاميليا، ومع استمرار المعاناة التي وصلت إلى حد المأساة، بسبب زوجته الجديدة، وأفعالها القبيحة المشينة، رغم محاولاته المتكررة لإرضائها، حتى ولو بالحرام، عندما فتح باب الرشوة التي لم يحصل عليها أبداً في حياة كاميليا، قرر الذهاب في زيارة إلى قبرها، وهناك استرجع شريط الماضي الجميل، ليقارنه بشريط الحاضر البئيس؛ ليصاب وقتها بالحسرة، ويشعر بالمرارة، رغم أنه بجوار حبيبته ورفيقة دربه. فهم بالوقوف ولكن إلى أين يذهب؟ إنه يريد سعادته بل إنه يريد عمره إنه يريد كاميليا ومع تيقنه أنها الذكرى الجميلة التي لن تعود، ومع استجماعه الحزن جملة واحدة مات كمداً لتكون زيارته تلك هي رحلته الأخيرة إلى قبر كاميليا.

□□ الوحيد

استيقظ من نومه مبكراً، مسح وجهه بيديه النحيلتين، فحمد الله أن يداه تتحركان، أزاح اللحاف من على جسده برجليه، فحمد الله ثانية كونه معافى، وأن رجليه أيضاً تتحركان، نظر إلى شُرفة حجرته الصغيرة، فإذا ضوء الشمس يخبره بميلاد يوم جديد، هم واقفاً للشروع في برنامجه اليومي ليبدأ صلاة الصبح، ثم تناول لقيمات من الطعام، ثم الذهاب إلى عمله، وأثناء شروعه للقيام بما إعتاد عليه، وجد الكآبة تنتظره على سريره، لمصاحبته _ كما هو الحال كل يوم - إلى حيث يذهب، رفع يديه إلى السماء، وتضرع إلى الله بالدعاء، الذي لا يمل من تكراره، وأن يُصلح ما بينه وبين زوجته سر تعاسته وشقائه.

لم يفرغ من التسليمة الثانية حال صلاته الصبح، إلا ووجد زوجته، صاحبة الوجه العبوس، المكسو بهالات من النكد والهم والحزن، وتخبره بصوتها الحاد الأكل عالطبلية، كل إياك يطمر فيك !! فيتناول مجبراً، كما

السجين في سجنه، لقيمات من الطعام المبعثر على المائدة، لسد جوعه، وتقويته للذهاب لعمله. وأثناء تناوله الطعام وحيداً تدخل ابنته الكبرى روان، فينظر إليها كالمستغيث، ويطلب منها برفق أن تتناول الطعام معه، وليشكوا إليها كالعادة أفعال أمها المقززة، فيكون كالمستجير بالنار من الرمضاء، حين تجيبه بتأفف:
أرجوك يا بابا .. زهقت من محاضرة كل يوم على الريق وإني أنا بنتك الكبيرة، والبنت حبيبة ابوها، المفروض تحبه وتدافع عنه، ويعلو صوتها فتسمعها أمها : فيه ايه يا بنت ؟ فيهمس والدها في أذنيها وجلاً : قوليلها مفيش حاجه، وبسرعة يُعطيها ما تحتاجه من نقود، فتأخذ منه ما تريده، وتتركه دون الاهتمام بحالته النفسية السيئة نتيجة أفعال أمها، وما أن تلبث وتضع النقود في حقيبتها، حتى يدخل أخوها مهند، ويطلب من والده نقوداً للذهاب إلى جامعته هو الآخر، فيتلهف الأب للكلام مع إبنه ومحادثته، والشكوى إليه من

أفعال أمه، فيجيبه ابنه مقاطعاً لكلامه، ورأسه تترنح يمنة ويسرة: يا بابا أنا عارف انت هتقول ايه، المكان مش نضيف، والأكل مش مُرتب، ماما علت صوتها عليك، أنا حفظت الأسطوانة دي يا بابا .. ارحمني بقى !! فيُخرج بسرعة النقود لابنه خوفاً أن يعلو صوته أكثر فتسمع أمه، فيزداد الأمر سوءاً. يدخل الابن الثالث الطالب بالثانوية العامة، ليبادر والده قائلاً : ابوس إيدك يا بابا اوعي تقولي ماما عملت ولا سوت، سبني في هم الثانوية العامة، وفي الدروس، ويستطرد قائلاً :هات فلوس دروس الكيميا والفيزياء والأحياء، فيبهت والده لهذا الفعل المفاجئ من ابنه، ويكتم في نفسه أو ينسى ما كان يود أن يفضفض به معه، ويُخرج من جيبه مصاريف الدروس، فيستطرد ابنه ثانية : هات ١٠٠ جنيه كمان،

الوالد : ليه ؟

الابن : مصاريف جيب

الأب : مصاريف جيب ١٠٠ جنيه ؟

علا صوت الابن وهو يجادل والده، في قيمة ما يحتاجه من نقود، فتأتي أمه وتصرخ في زوجها : اديله ١٠٠ جنيه، يعني انت عاوزه يبقى شويه بين صحابه، وتستطرد صارخة : ما قولتلك شوف شغلانه تانيه تعدل العيشة شوية، بدل العذاب اللي انت معيشنا فيه.

يخرج المائة جنيه التي معه مُرغماً، ويعطيها لابنه، فيأخذها متأففاً دون توجيه كلمة شكر لوالده، والذي أخذ في تفقد جيوبه للبحث عن جنيهات توصله لعمله.

خرج وحيدا من بيته كخروج السجين من سجنه، فكلما ابتعد عن البيت خطوات، تأخذ دقات قلبه في الانتظام والانضباط، ويشعر بأن الهواء النظيف يتواجد حيث البعد عن البيت، أو عن زوجته. وكان أكثر ما يشد

انتباهه أثناء السير، حين تقع عيناه على زوجين يمشيان معاً، وأيديهما متشابكتان، ويتبادلان نظرات الرفق والرحمة ما يعكس وبجلاء حالة من السعادة تغمرهما، فيتذكر بكامل الحسرة والمرارة، هذا اليوم المشؤوم الذي قُدر له أن تُزف إليه زوجته.

ويجد في عمله ما يفتقده في بيته أو في حياته، وما يُسري عن نفسه الحزينة هذا الواقع الأليم المحُزن، ففي حجرة عمله يلقي عليه السلام زميلاه أحمد ووليد، كما تلقي السلام عليه زميلتاه سامية وثناء، ووجههما ترتسم عليه ابتسامة جميلة، تبعث بالحسرة لافتقاده هذا الأسلوب المهذب الجميل، فيحدث نفسه وحالة الكآبة الملازمة له منذ خروجه من البيت بجانبه قائلاً : لو زوجتي تبتسم ليا كده، ولو يكون أسلوبها بالشكل الجميل ده، ويا سلام لو تبقى شيك ولبسها حلو زي سامية وثناء، ويفيق من سباته لتزداد حسرته وهو

يسمع سامية تتغنى بحب زوجها والثناء عليه، وانعكاس حالة الحب والوئام بينهما، ما جعلها تترنم قائلة : جوزي دايما يقولي انه لما بيدخل البيت بيحس انه في الجنة، وأنه دايما شايفني ملكة في عينيه، وتردف ثناء بما يزيده حسرة ومرارة : وانا جوزي اغلى عندي من عنيا، ودايما هوه بيقولي كده، ويطلب مني أقعد معاه أطول فترة نتكلم ونضحك.

وسرعان ما تنتقل دفة الكلام إلى زميليه أحمد و وليد، ليشرع كل منهما بإسهاب جميل، في الترنم والتغني والثناء على زوجته، فتزداد نظرات التعجب من صاحبنا، وهو يحدق في وجوه كل زملاءه من السعداء، ويجد نفسه هو الوحيد بينهم، الذي لم يذق طعم السعادة الزوجية، فتتملكه الحسرة، وينتابه شعور من الإحباط واليأس، ورغم أنها ليست المرة الأولى التي يتحدث فيها زملاءه في العمل مثل هذه الأحاديث

المرهفة، والتعبير عن المشاعر الرقيقة، التي تعكس واقع حياتهم الزوجية السعيدة التي يعيشونها، إلا أن هذه المرة تحديداً كانت بمثابة دلو من الماء انسكب على رأسه النائمة والغافلة، على مدار ما يزيد عن العشرين عاماً، ليفيق أخيراً من سباته العميق، وراح شريط العمر يمر أمام عينيه المكتحلتين بحزن مزمن، وألم دفين، والدهشة تتملكه، والأسئلة الحائرة تطرح نفسها عليه، وكيف استطاع خلال تلك الفترة الطويلة من عمره أن يتحمل أفعالاً من زوجته، يندى لها جبين الرضيع، دون أخذ أي موقف معها إلا الاستسلام المخزي، والضعف المهين، من أجل عيون أبنائه الذين دفعوا له مكافأة تضحيته من أجلهم، بأن قدموا له أسمى آيات العقوق، على طبق من صفيح صدئ. مرت أمام عينيه مئات المواقف الأليمة والمبكية بل والمضحكة، إذ أن شر البلية ما يُضحك، وظل يشاهد شريط حياته الأسود، كمن يشاهد هذا الليل الحالك

الظلام، والخالي تماماً من النجوم والأقمار، ولم يفق من حالته تلك إلا عندما هم زملاؤه بالانصراف؛ ليتركوه وحيداً، غير عابئين ولا مكترثين لحالته السيئة التي هو عليها، والتي اعتادوها منه على مدار سنوات من العمل معه، وعلى غرار موقفهم المتسم باللامبالاة، فإنه هو الآخر لم يكترث لفعلهم وتجاهلهم، بل راح يراجع شريط حياته، ليبدأ من مرحلة طفولته البئيسة، حين أجابته أمه على سؤاله المُر، الذي وجهه إليها، وهو ابن الخامسة من العمر أين أبي ؟ ولماذا أسماني وحيداً ؟ ورغم كثرة تهربها من الإجابة، إلا أنها استسلمت لحقيقة لابد له من معرفتها، وأن أباه مات، وهو لم يبلغ الحولين من العمر، وارتجف فؤاده، وانسكبت الدموع من عينيه بشدة، حيث أقسى المشاهد في حياته يبدو له جلياً الآن، وهو يشاهد فراق أمه، وله من العمر عشر سنوات، وبرد ملمس يديها الحانيتين ما زال يشعر به على خديه المصفعتين بقسوة الفراق،

وهي تودعه بدموع ذرفت من عينيها حزناً لفراقه، وخوفاً عليه، وهو في هذه السن الصغيرة، ولم يكن له في الدنيا سواها، وكأنه تنبه الآن والآن فقط، لسبب دموع أمه حال فراقها الحياة، وكأنها نبوءة الأمومة لما سيعانيه وما سيقاسيه في دنيا الأحزان.

انصدع قلبه من هول المشاهد الأسرية التي رآها، وانتبه لها بعد سنوات طويلة من الألم والمعاناة، وقد بلغ السيل الزبى، وفاض الكيل بما فيه، ليجد نفسه يقاسي من آلام دنيا، لم يكن له فيها نصيب، إلا أن يحيا وحيداً.

* * * * * *

□□ الشتيتان

حادَ هو بنفسه في بلده مصر، كما حادت هي بنفسها في بلدها تونس، عن واقع هما يرونه غير ملائم لطباعهما، واختار كل منهما العزلة طواعية عن الناس، وعن أفعالهم وأقوالهم، التي لا تناسب بحال مكنون شخصيتهما، وأصبحا كمن يعيش كل منهما في الكون منفرداً. حتى الأهل الذين تربيا معهم، ونشآ تحت ظلهم وفي أحضانهم، إنعزلا أيضاً عنهم من الناحية الفكرية. فلم تكن العلاقة إلا مجرد الاجتماع على مائدة الطعام، والتحدث في الأمور الحياتية، دون الانجراف إلى مواضيع أخرى كقضايا الأمة التي تشغل بالهما، والتي سببت لهما غربة بين المحيطين والمتعاملين معهما، لا لشيء إلا أنهما مؤمنين بقضايا مهمة يراها الكثيرون حولهما قضايا عقيمة، إن تحدثوا أصلاً عنها، فَجُل أحاديث المحيطين بهما، تنصب إما على كرة القدم وأخبار اللاعبين وتنقلاتهم. يتابعونهم ويتابعون أخبارهم كما لو كانوا أبناءهم، ومن أصلابهم دون أدنى

منفعة تعود عليهم، وإما متابعة المسلسلات والأفلام وأخبار الممثلين والمطربين، والأموال التي يتقاضونها، وحياة الرغد والنعيم التي يحيونها. كان كل شيء حولهما غريباً وساذجاً، على النحو الذي جعل كل منهما يسأل نفسه هل أنا على صواب وكل هؤلاء خطأ ؟ فما أن يلبث أحد الشتيتين التحدث في جمع من الجموع، عن قضية من القضايا المهمة، فلا يجد أذناً مصغية، بل هي حالة من اللامبالاة طاغية، وقلوبا عن الكلام ساهية ولاهية، والعجيب ومن وجهة نظرهما أنه لو تحدث آخر عن موضوع تافه، كانتقال لاعب من فريق لفريق، أو إلقاء القبض على مطرب أو ممثل مشهور في قضية من القضايا التى تنفر منها النفس، فها هي الأبدان تخشع وتقشعر، والأذان تصغى وتنصت. على هذا النحو كانت حياة الشتيتين، لم يسلما من تقريع المحيطين لهما باللسان، والسخرية منهما كل وقت وآن، وما يتبع ذلك من عدم الراحة

والاطمئنان. فقررا البعد عن كل مُهان وجبان، ومن كانت شهوته هي غايته في هذا الزمان، فنسى وتناسى آلام أمة تهان، لم يسمع صرخة طفل يأخذ المحتل أمه أمام عينيه ودمعه كالطوفان، وشيخ كبير تذرف بالدمع عيناه فأولاده خلف القضبان، وشاب سحلت أخته فيستحي جرعة ماء رغم أنه ظمآن.

شرع الشتيتان في عزلتهما طواعية كل في بلده، هو في مصر الكنانة، وهي في تونس الخضراء، ليجدا من العزلة مشقة وتعبا، فلا ريب أن مخالطة الناس ومناقشتهم، والتحدث معهم فيه ما فيه من التسرية والترويح عن النفس، ولكن أنى لهما ذلك وقد لقيا من الناس ما أودى بهما إلى العزلة الموحشة، ولم يكن عند أحدهما محبة الدخول إلى الشبكة العنكبوتية، والانخراط في عالمها الواسع والمتشعب، إلا أنهما وجدا فيها ملاذاً يخفف عنهما حِدة وصعوبة العزلة ووحشتها، والوحدة

وقسوتها، فشرع كل منهما إنشاء صفحة باسمه أو اسم مستعار فالمصري سمى صفحته ابن الشاطىء، والتونسية سمت صفحتها زهرة اللوتس، وبدءا ينخرطان في هذا العالم الجديد بالنسبة لهما، كل منهما يبحث عمن هو على شاكلته، ومن يهتم بقضايا الأمة وهمومها، ومن يفكر في سبل تخليصها من آلامها وأحزانها، ومن يفكر أيضاً في اقتلاع تلك الشجرة الخبيثة التي زرعها المحتل طوال عقود طوال، لتؤتي ثمارها العفنة بما يفرق دول الأمة إلى دويلات وممالك، بينها من التشاحن والتباغض ما تئن النفس لذكره. هُم للمحتل الغاصب أقرب منهم لأبناء جلدتهم ولُغتهم. لكنهما وللأسف لم يجدا في وسائل التواصل ضالتهما. فلا فرق بين واقع كانا يعيشانه من مخالطة الناس والتحدث معهم وجهاً لوجه، وبين واقع وسائل التواصل، وكأن الأشخاص الذين تركا الدنيا هرباً منهم ومن أفكارهم، وهرولا إلى كهف العزلة المخيف

بسببهم هم أنفسهم بشحمهم ولحمهم وفكرهم القابعون خلف منصات التواصل، بل إن الشبكة العنكبوتية كانت كمن نكأ جرحاً دامياً، أوكمن زاد الطين بِلة، فهاهي رائحة التطبيع العفنة، والتصال مع عصابة مجرمة، قلوبهم مظلمة، وأياديهم مُعدِمة، وأرجلهم إلى القتل والسفك مُقدِمة. تجد هذ الرائحة الكريهة رائحة التطبيع والتصالح يستنشقها البعض بل ويستعذبها. فكان حال هؤلاء كحال الجُعل الذي يفرح ويسعد ويأنس بالرائحة العفنة المنفرة. ليزداد الشتيتان غربة فوق الغربة، ووحشة فوق الوحشة. فيقررا الهروب مرة أخرى إلى عالم هادىء أنيق. عالم أنت من تختاره، وتختار أشخاصه. لا يملون منك حتى تمل، كرمهم سياح، يعطونك لترتاح، وتعيش معهم بانشراح، وإن كانت ذَلة فليكن السماح. إنه عالم القراءة غذاء الأرواح، ومنبع الفلاح، فكانت قراءة الكتب ملاذاً لهما ليشرعا في قراءة مايفيدهما من كتب في شتى المجالات،

غير أنهما لم يتركا صفحتيهما على منصات التواصل بالكُلية، وخصصا ساعة واحدة في اليوم كل منهما يتصفح صفحات الأخرين. فإن كان الفكر متقارباً ومتوافقا طلب صداقته. وشرع في التحدث معه، وظلا الشتيتان على هذه الحال مدة من الزمن. حتى كادا أن يسلما ويئسا من تواصلهما بمن هم على شاكلتهما. إلى أن كان هذا اليوم، وأثناء تصفح ابن الشاطيء المصري صفحة زهرة اللوتس التونسية، ليجد بُغيته بل ومتعته وفرحته. فكل ما تكتبه على صفحتها، كأنه هو من أملاها هذا الكلام الذي يصادق فكره ووجدانه، وينم عن فكر واع متألق، واحتار في معرفة جنسيتها. فتارة يحسبها فلسطينية من كثرة المنشورات والصور الداعمة للشعب الفلسطيني، وتارة يحسبها عراقية حال بكائها على أبناء الشعب العراقي وما يلاقيه ويعانية من همجية وإجرام المليشيات الشيعية الإيرانية، وقد يجزم أنها لبنانية حال سماع أنين كلماتها وهي ترثي

ضحايا رأس الإجرام هناك، وربيب إيران وتفجيراته لمرفأ بيروت، إلا أن ابن الشاطىء يتراجع عن توقعاته تلك عند قراءة هذه المنشورات لزهرة اللوتس، والتي كتبتها بدمع عينها الجميلة، وهي ترثي سوريا الحبيبة، وتشبهها بفتاة جميلة أنيقة تكالب عليها مجموعة من الكلاب البشرية ليغتصبوها ويمزوقها، وهي تصرخ وتستغيث بأهلها، وأخواتها من الدول المجاورة لها، والصمت المطبق هو سيد الموقف، ولم تهدأ صرخات سوريا إلا عندما سمعت صوتاً قادماً من اليمن الذي لم يعد سعيداً، وهو ينشد بصوت معجون بالدموع

لقد أسمعت إذ ناديت حياً..

ولكن لا حياة لمن تنادي.

ولو ناراً نفخت فيها أضاء

ولكن أنت تنفخ في رماد

ومع هذا الزخم لمنشورات الزهرة التونسية، جزم أنها من الصومال، وهو يقرأ كلمات الأسى والحزن والإشفاق، لحال الأشقاء هناك، وهذه الصورة المفجعة لطفل يصارع الموت جوعاً، وتنتظر إحدى الطيور مصرعه حتى تلتهمه. وفجأة حولته منشوراتها إلى جهة مختلفة تماماً، وهو يقرأ ويشاهد صوراً، ومنشورات تجسد واقعاً مريراً وأليماً للمسلمين في الهند والصين وبورما. لم يعرف بعد جنسيتها إلا وهو يقرأ أحد منشوراتها تحت عنوان تصحيح لشاعر بلادي، وهي تصحح شطر بيت من الشعر، لشاعر تونس والعرب أبو القاسم الشابي

إذا الشعب يوما أراد الحياة

فلابد أن يستعيد العبر.

لم ينتبه ابن الشاطيء إلى تحذير الزهرة التونسية من استخدام الخاص والتواصل عليه، فكتب وكله نشوة كنشوة العصفور ملقياً التحية عليها، فلم يجد رداً منها، وظل أياماً كل يوم ينظر بشغف إلى ردها فلا يجد رداً، حتى انتبه فجأة إلى قولها :الخاص ممنوع. ليكتب من فوره بدافع أحاسيسه المرهفة، ورُقِيه الجميل اعتذاراً لها، وتأسفه لمخالفة رغبتها ورأيها. وانسحب بعد اعتذاره وفي نفسه غصة، وأصاب قلبه الحسرة، فبعد بحث دؤوب استمر طيلة سنوات باحثاً عمن يوافقه الفكر، وبمجرد أن وجدها يجد سداً منيعاً بينهما مكتوباً عليه الخاص ممنوع، ولكنه بفكره المتألق وأحاسيسه الشعرية احترم رغبتها، غير أن نفسه التواقة والمتشوقة لمثل هذا النوع من النساء كانت تهرب إلى صفحتها، وتقرأ المنشورات والكتابات التي كتبتها زهرة اللوتس. فيزداد شوقاً واشتياقاً للكلام معها، ولكن تلوح أمام عينيه جملة الخاص ممنوع.

فيستسلم مجدداً. إلى أن كان هذا اليوم الذي تشاجر فيه مع أحد الأشخاص، والأخير يبرر قصف المحتل لغزة وقتل أهلها، فنهى حواره معه وحالة من الاشمئزاز والإحباط تتملكه. ليهرع من فوره إلى من توافقه أفكاره، ويدلف إلى صفحتها ليجد ما يطيب خاطره، ويشرج صدره ويصيبه بالسعادة، فها هي الزهرة التونسية تتفتح وترد تحيته على الخاص، وتخبره أن الخاص ممنوع لأولئك الصنف التافه الذي يتلاعب بمشاعر الأخرين، ويبحث فقط عن شهواته ونزواته. وتردف بما أثلج صدره، وجعل السعادة تغمر قلبه، ويشعر أنه أسعد إنسان على وجه البسيطة، حينما أثنت على منشورات صفحته، وعلى قصائد الشعر التي تنم عن شاعر موهوب حقاً، ومهتم بشئون الأمة، وشعوبها كما هو حالها. وكان التوافق بين الزهرة التونسية، والشاب المصري كبيراً كتوافق لغة الضاد بينهما. فعلى غرار ظنونه الكثيرة ليعرف جنسيتها وموطنها كان حالها، فما

أن انتهت من قراءة قصيدته الرائعة الجزائر، ومن الوهلة الأولى حسبته جزائرياً، وهو يصف ما تعرضت له الجزائر من مجازر تئن لها كل الضمائر البشرية، وتصحيحه لمسماها بلد المليون شهيد، وإنما الشهداء فيها تجاوزوا إبان فترة احتلالها أكثر من مليونين، إلا أن قصيدته القدس قِبلة الجهاد جعلها تعدل عن رأيها وتقول أنه فلسطيني، ولكنها سرعان ما سافرت إلى العراق على أجنحة قصيدته العراق الجريح، وجعلت الزهرة تطوف على عدد من الدول لتعرف بلد نشأته لتهبط أخيراً في أم الدنيا بعد قراءة قصيدته مصر. قلب العروبة.

شرع الشتيتان في التحدث على الخاص. كان حوارهما فريداً، فالذي يتكلم به المصري يوافق تماماً ما تقتنع به الزهرة التونسية، وما تقوله الزهرة هو ما كان سينطق به المصري. ذاقا معاً طعم السعادة، ولبس كليهما تاج

الريادة، وشكرا القدر أن كان هذا التعارف الجميل بما يحمله كليهما من فكر أصيل، وقلب طيب نبيل، وبما يشعران به من راحة ليس لها مثيل. ظلا على هذا الحال بضعة شهور. ذاقا فيها طعم الفرح والسرور، وودعا حالات الملل والفتور، وأهل الباطل والزور. ليتغير الحال والعلاقة بينهما من مجرد صديقين، إلى مالا يستطيعا أن يفصحا به كل للأخر. كان المصري حال جلوسه منفرداً يرى الزهرة أمامه، وكأنها تحدثه ويحدثها، بل إنها توقظه من نومه ليقوم ويقرأ ويراجع حوارهما، وحال فعله ذلك ينسى النوم مستعذباً ما كان بينهما من حوار. لتسيطر الزهرة بجمالها وعبق ريحها على عقله ووجدانه. فأضحت هي أو أضحى كلامها يُمثل له الهواء الذي يستنشقه. كما كان حالها منذ عرفته غير أن نظرتها إليه باتت مختلفة عن بداية تعارفهما، فبداية التعارف كانت معجبة بكتاباته وأشعاره، ولكن سرعان ما تحول الإعجاب بالكلمات

والأشعار إلى الإعجاب بالشخص نفسه وبمنطوق فكره، كان التوافق بينهما كبيراً كليهما أحبا الأخر دون أن يشعر، وكليهما يريد أن يطفئ تلك النار المشتعلة بداخله بالإفصاح عن هذا الحب الساكن قلبه، وهو من نوع فريد. فقد أحبها دون أن يراها، وأحبته دون أن تراه، بل انه أضحى يمثل لها كل شيء. لا تستطيع أن يمر يوماً إلا وتناقشه وتحادثه وتسمع منه ما يشغله وما يفكر فيه. كانت تسمعه بقلبها المرهف، ورقتها المطلقة، وعطفها الفياض، أثبتت ذلك بجلاء حين كان يحكي لها عن الأيام الأخيرة في حياة أمه، ورغم أن الحوار بينهما كان بالكتابة إلا أنها استوقفته، وكتبت طالبة منه أن يمسح دموعه، فتعجب لذلك أشد التعجب، وسألها بعد أن هزت أركان قلبه كيف عرفتِ؟! فأجابت وهي تبكي لبكائه لا عليك. أحب بسببها الدنيا، وأضحى كل شيء يراه جميلاً، وأضحى هو أيضا مثار تعجب للمحيطين به، وهم يرون الابتسامة

لا تفارق وجهه، والنشوة والفرحة تسيطران على مفارق جسده. لم يعد ينقصه من السعادة شيئاً، إلا أن يفصح عن حبه لها، وتقبل هي هذا الحب ليتم ترجمته إلى الهدف الأسمى بالزواج منها، لتكون له شهرزاد عمره، ويكون هو كهذا الفارس المغامر الذي سلك الطرق الوعرة والمحفوفة بالمخاطر بُغية الوصول لهدفه وسعادته، فاستجمع ما به من شجاعة، وأفصح لها عن حبه ليسمع منها أجمل كلمة سمعها في حياته، وأنها أيضا تحبه. فظن أنه يحلم. فعهده بالدنيا طيلة سنوات عمره الماضية أنها على غير مراده، وضد طموحاته وأغراضه، ولكن يبدو أنها رأفت بحاله، وساقت إليه السعادة جملة واحدة، لتعوضه سنوات الحرمان، وتنسيه مواقف الأحزان. فأسمعته ما تطرب له الآذان، وما تبتهج له الأبدان، وأخبرته الزهرة قمر الزمان بما تهواه نفسه من كلام حسان، فقالت أحبك أيها الإنسان. ليشرع من فوره بالتفاعل والانسجام والتناغم

مع بنات أفكاره بعد هبوط وحي خياله، ويكتب قصيدته الجميلة المعاني المرهفة الأحاسيس زهرة اللوتس. على أن يهديها لها في اليوم التالي، ونظم قصيدته واصفا تلك الأجواء، فكانت كلماته كأفضل ما كتب الشعراء، وأحسن ما جادت به بحور البلغاء. وصف وجهها كقمر ساطع وسط السماء، وعينيها الجميلتين كبستان أخضر. روته الأنواء، وقلبها الكبير كجدول حب حاله العطاء. فكانت قصيدته الغراء التي أضاءت قلبه كما تضيء الشمس الدنيا بأشعتها البيضاء. وهرول فور انتهاء قصيدته ليرسلها لزهرته التونسية فيفاجأ بانقطاع التواصل، رغم أنها كانت تنتظر منه إرسال القصيدة بفارغ الصبر، ومع نفاذ صبرها حاولت التواصل معه، إلا أنها فقدت التواصل أيضاً. دون معرفة السبب، فتعجبا لذلك أشد آيات التعجب، وأصابتهما حالة من الدهش الشديد، وكاد عقلهما أن يطيش، فكانا على غرار من ضل الطريق

يوماً، فوجد نفسه في صحراء جرداء، ولم يعرف أي الاتجاهات يسلك حتى وجد نفسه على مشارف الموت بعد أن مزق العطش أحشاءه، ومع بحثه المتفاني وجد قارورة ماء فسعد بذلك أيما سعادة، ورفع رأسه للسماء شاكراً الله على رحمته، ولم يلبث أن يمسك قارورة الماء حتى اختفت. فهي في الحقيقة سراب يحسبه الظمآن ماءً. كان هذا حالهما. لم يعرفا بعد لماذا هذا الانقطاع رغم أن السعادة ولا ريب في التواصل. عاشا كعصفوري كناريا جميلين. كان الحب بينهما كأجمل ما يكون الحب، وأثناء رحلة أحدهما للبحث عن شيء، وكان قد وعد حبيبته بالعودة سريعاً، إلا أنه وللمرة الأولى لم يفِ بوعده لها، في الوقت الذي هبت فيه تلك العاصفة الجبارة لتودي به إلى المجهول، وتظل هي قابعة في قفص الحيرة حزينة تعيش على الأمل المفقود. لتكتب الزهرة على صفحتها بدموع الحب وهي على حالتها الحزينة:

طال الشوق لشاطىء حبيبي

فهل من سبيل للوصول.

وكان هو قد كتب على صفحته بدموع الأمل:

كيف السبيل لوصال زهرة

يسعى لوصالها القلب ويسعد.

أرهقهما التفكير كثيراً خاصة وأنهما لم يعرفا بعد ما السبب في انقطاع التواصل. فكان حالهما على غرار التباعد بين الدول العربية، دون معرفة الأسباب المقنعة لهذا التباعد، غير أنهما لم يفقدا الأمل في رجوع التواصل بينهما، كما لم تفقد الشعوب الأمل في رجوع الأمة إلى سابق عهدها في السيادة والريادة، وتمثلت هي قول الشاعر:

لقد كان حلماً أن نرى الشرق وحدة

ولكن من الأحلام ما يتحقق.

وتمثل هو قول القائل:

قد يجمع الله الشتيتان بعدما

يظنان كل الظن أن لا تلاقيا.

* * * * * *

□□ التاج

بمجرد أن نما إلى عِلمه أن من ذهب إلى تلك الجزيرة البعيدة المترامية الأطراف، وقدم إلى مَلِكِها بعضا من عصارة بنات أفكاره، متمثلة في قصيدة شعرية، فسوف يفوز بجائزة قيمة مقدارها تاج ملك هذه الجزيرة بالغة الثراء، والذي يبدو جلياً في هذا التاج المرصع بالياقوت والزمرد والمرجان، فضلاً عن الذهب حِلية الفقراء إذا ما قورن بما يحتويه هذا التاج الفائق الجمال من لآليء ثمينة وجواهر نفيسة.

ولشدة إعجاب وإغراء هذا الرجل - الموهوب حقا - لم يسمع ولم يأبه لباقي الكلام، الذي يجسد باقي شروط مسابقة الحصول على التاج. بل هم بالذهاب فوراً قاصداً منزله المتواضع ليركن فور دخوله إلى المخلصات له دائما وأبدا، وهُن بنات أفكاره، وحكى لهن ما سمعه، وما كاد أن ينتهي من حديثه، وقبل أن يطلب منهن إرواءه بما يذهب ظمأه، ويشفي غليله بتحقيق أمنية الأمنيات، وأعطية الأعطيات بحصوله

على التاج، إذا بهن المخلصات حقاً، والحبيبات صدقاً. فجادت كل واحدة بأجمل وأعذب ما عندها من كلمات معبرات. فكانت كل منهن كالشجرة الطيبة التي ما يكاد صاحبها أن يصعدها مقتطفاً ثمرة اشتاق إليها، إلا وجادت الشجرة بأجمل وأطعم وأطيب ما تحمله من ثمار. فشكر لهن الجميل، ولم ينتظر شمس الصباح ليحصل منها على تأشيرة الذهاب إلى جزيرة التاج، بل إنه اتخذ الليل جملاً، وحزم الوريقات القليلة ولكنها الكثيرة بما فيها من كلمات معبرة، وتشبيهات مبهرة، تحاكي ما كتبه ونظمه فحول الشعراء، وما سطره سلاطين الأدباء.

ورغم وعورة الطريق، وفراق الأخ والصديق، وافتقاره إلى من يكون له رفيق إلا أنه تحمل الصعاب، ومضى في طريقه آخذاً بالأسباب غير عابىء بنباح الكلاب، ولا بظلام الليل المهاب، ولا بشدة الحر المعاب، ولا بهطول العرق على جسده وكأنه نحاس مذاب، وهو يَعِد جسده مع كل قطرة عرق أنه سيعوضه عن هذه

الرائحة الكريهة برائحة المسك الزكية فور حصوله على التاج.

وبعد مدة من مسيره في الليل والنهار، وعبوره البحار والأنهار، ومواجهته الكثير من الأخطار، وبعد جهد جهيد وطول انتظار بدت له تلك الجزيرة محل الاختيار. وما أن وطأتها قدماه النحيلتان من قسوة السفر ومشقته، حتى توجه من فوره قاصداً قصر ملك التاج، وسُمح له بالدخول ليجد الملك وبجواره زوجته ملكة القلوب كما يحلو للبعض أن يناديها بهذا اللقب، ومن حولهما الحاشية تحيطهم زخارف العز والأبهة، بما قد يصيب العقل بالانبهار، ولم تستطع عيناه معرفة شكل الملك وزوجته، ولا أحد من حاشيته، فبريق التاج الكائن عن يمين الملك أخذ عيناه. فلم يأبه لتوجيه الكلام له، وسؤاله إلا عندما وخزه أحد الحراس، وأمره إجابة الملك فعاد لتوه، ومع تكرار السؤال من الملك أخرج ما في جعبته من وريقات يمثلن حلم حياته، وقدمها الخادم إلى الملك ليصاب جميع

الحضور - باستثناء صاحبنا الذي عاود النظر إلى التاج - بحالة من الدهشة لما أصاب الملك من حال بمجرد شروعه في قراءة الوريقات المكتوب فيهن القصيدة، ولم يُبدِ مقاله إلا أن وزيره المقرب سأله عن الخطب ؟ فلم يقل شيئاً غير أنه دفع إليه الوريقات ملتزماً الصمت، وتلقفها الوزير فأصابه ما أصاب الملك من حال لشدة الإعجاب بما هو مسطور فيها، وسرعان ما أصيب الجميع بما أصاب الملك ووزيره لمجرد شروعهم في قراءة ما كتبه ونظمه هذا الشخص الموهوب حقا، على غرار ما أصاب نسوة يوسف حين رأينه غير أن هؤلاء لم يُقطعوا شيئاً.

أفاق الملك من تلك الحالة التي أصابته نتيجة إعجابه المطلق بقصيدة صاحبنا دون غيرها من القصائد. بل وتأثره بالتشبيهات المعبرة، والألفاظ المبهرة، وما أن هم لإعلان فوز صاحبنا بالمسابقة، وبالتالي حصوله على التاج، وهذا ما راقت له زوجته ملكة القلوب، إلا أن بطانة السوء ألجموا لسانه، وسالت أودية كلامهم والتي مفادها أن صاحبنا يمتاز بفصاحة الكلام، وقدرته

على التعبير والبيان، وشِعره حقاً حسان، إلا أنهم استطردوا قائلين لملكهم ولكن انظر إلى هيئته المقززة، وسألوه كيف لك أيها الملك المبجل أن تصافح هذا الصعلوك صاحب الثياب الرثة المرقعة ؟ وأجابوا على أنفسهم الخبيثة نعرف أنه يجيد الكلام واستطردوا إنه ليس صاحب هندام، ومصافحته قد يصيبك بالجذام، وسيكون عليك من الرعية ملام. وإذا كنت معجباً بكلامه فهذا أيضاً يجيد الكلام، وهم يشيرون إلى شاعر آخر لا يقارن أبداً بصاحبنا إذا كان للإنصاف نصيب بينهم. واستمروا في الإلحاح بشدة حتى نجحوا في مهمتهم، والعمل على إنجاح شاعرهم تنفيذاً لخطة مسبقة، وصفقة مبرمة بينهم وبينه لاقتسام الجائزة الثمينة، إن هم مكنوه من الفوز بها.

لم ترق نفس ملكة القلوب لأفعالهم المشينة، واجتهادهم في إثناء زوجها الملك عن قراره، ونجاحهم في ذلك مما يحقق جرماً واضحاً وظلماً فادحاً لصاحبنا الموهوب، لا لشيء سوى أنه فقير. إلا أن تعاطفها معه لم يغير شيئاً، وتم على الفور إعلان فوز الشخص

المتآمر مع البطانة الفاسدة بجائزة التاج مما ترك في نفسها غصة بما يتعارض مع فطرتها السليمة المعروفة بها، وأنها ترفض الظلم وتبغض أهله.

ولم يكن صاحبنا مهتماً بشيء غير تاج السعادة الماثل أمام عينيه، ولم يحول بصره عنه إلا عندما أعلن الحاجب نتيجة المسابقة، وعدم فوزه بها، ليصاب بالحسرة الشديدة، ويفوز بالتاج من هو دونه في كل شيء غير أنه يتميز عنه ببراعة التعامل مع اللئام ممن هم على شاكلته الخبيثة.

ولشدة إعجاب الملك وحاشيته بما خطه قلمه، وبما جادت به بنات أفكاره قرر الملك وبإجماع الحضور أن يتم منح صاحبنا تاجاً نحاسياً مختوماً بخاتم ملك الجزيرة تقديراً لموهبته الفذة، ومجهوداته المضنية.

خرج صاحبنا من القصر. وهو يجر أذيال الهزيمة. محطم الآمال. مكسور الجناح، منهك القوى كارهاً لنفسه وللدنيا، مات الأمل بداخله.

عميت عيناه عن كل طموح، وصُمت أذناه عن سماع أي شيء وكل شيء. اسود قلبه فلم يعد يكره في الدنيا قدر كرهه للدنيا وما فيها وما عليها. خرج ودموع الحسرة تتساقط من عينيه بعد أن اختلطت بطعم المرارة التي ملئت حلقه. كان حاله كحال هذا العصفور الجريح الذي فقد أمه، وبالتالي فقد سعادته بعد أن أودت به الريح من مكان شاهق فأردته تعيساً. وبدأ رحلة الإياب التي تناقض تماماً رحلة الذهاب. فالرحلة الأولى ذهب إليها بقلبه ووجدانه. بأحاسيسه ومشاعره. بالأمل المفعم بالحيوية والنشاط، وبأحلام السعادة والتي كانت بالنسبة له شبه محققة. فظن أنه سيفارق البؤس والأنين، وسيطوي صفحة الماضي الحزين. ظن أنه سيودع أرغفة الخبز التي لا يستطيع تناولها إلا بعد مراودتها بسكب الماء عليها، وسيودع أعواد الحصير المتهالكة التي لا تمل من كتابة حالة بؤسه وشقائه على جسده النحيل باللغة الهيروغليفية. زادت مرارته وحسرته - أثناء إيابه - عندما تذكر الوعد الذي قطعه على نفسه – أثناء ذهابه - إن هو فاز في تلك المسابقة

كما كان يعتقد فإنه لن ينسى. الفقراء ممن هم على شاكلته البئيسة، والذين يعانون من الفقر المدقع صيفاً وتاءً ففي الصيف تنال منهم الشمس بأشعتها الحارقة. فجدران بيوتهم المتهالكة السماء هي سقفها. لينال منهم الصيف والشتاء. إنه لن ينسى. كِسرة الخبز التي كانوا يقتسمونها، ولم يكن واحداً منهم يتحلى بالإيثار بترك لقمته للأخر. فالإيثار من أحدهم يعني موته وهلاكه. ظن ظنوناً كثيرة كلها تدور حول التخلص من أغلال الفقر التي ظلت تكبل عنقه طيلة عمره الماضي.

أُجهد صاحبنا من طول المسير، ومن كثرة التأمل والتفكير، وراعه وعده لكل فقير، وأنه سيحقق لهم الكثير والكثير. إلى أن لاحت أمامه شجرة ظلها وفير، فركن إليها ركون الهارب الأسير، وما أن أظله ظلها، واستنشق هواءها حتى خر بجسده على الأرض، وعيناه قد أغمضتا بعد هجوم عنيف من نوم غائب منذ فترة طويلة.

استيقظ صاحبنا ولم يأخذ من النوم حاجته، وهو يحملق في صاحب هذا الصوت الذي يطلب منه أن يجيب الملكة. لم يكن يصدق أذنيه وهو يسمع طلب الحارس إجابة ملكة القلوب، ولم يصدق عينيه وهو يراها ماثلة أمامه وهي تكلمه برقة لم يسمعها من قبل، وتخبره أن حقه لن يضيع. وظن أنه يحلم وهي تمد يدها لتعطيه تاجاً هو أثمن وأنفس من تاج المسابقة.

على الفور تقدم لها بالشكر الجزيل، وأخبرها عدم نسيان هذا الفعل الجميل. ثم توجه إليها بما يدل على صدق نيته، وسلامة قلبه طالباً منها إعطاءه قيمة التاج نقوداً، حتى يتسنى له الوفاء بوعده للفقراء، ورفقاء درب البؤس والشقاء، ومساعدتهم كما وعدهم.

على الفور لبت ملكة القلوب طلبه، وأعطته النقود دون أن تسترد منه التاج. فأعطية الملوك لا ترد.

ليقوم صاحبنا بعد أن نفض عن جسده غبار الجهد والتعب، وينطلق إلى بلدته تحمله أجنحة السرعة، ونشوة العصفور في عينيه ليحقق ما وعد به فقراء بلدته، ويلبي حاجاتهم الحياتية من مسكن وملبس وخلافه. مما كان لذلك أكبر الأثر في نفس ملكة القلوب المحبة لمثل هذه الأعمال التي تنم عن صفاء النفس، وطهارة القلب. مما دفع بها أن تطلب منه الذهاب معها إلى القصر. دون الإفصاح عن السبب. فلبى طلبها على الفور، وتعلم ابنة الملكة المحبة للخير -مثل أمها - بصنيع صاحبنا فتقبل راضية كلام أمها ملكة القلوب، وأن هذا هو من يستحق أن يكون شريكاً لحياتها. ليقوم صاحبنا من فوره بوضع التاج على رأسها ليكون مهراً لها.

□□ وجع قلب

لم يتوان في الذهاب إلى طبيب الصدر المعالج، حين شعر أثناء سيره المعتاد للذهاب لعمله ضيقاً في الصدر، وثقلاً وألماً شديداً في ذراعه الأيسر، وصعوبة في التنفس، ما جعل العرق يتصبب على جبينه، وكادت روحه أن تبلغ الحلقوم، غير أن أجلها المسمى لم تبلغه هذه الروح بعد، دلف إلى حجرة الطبيب، بعد مشاجرة شديدة مع هذه الفتاة، التى تنظم دخول المرضى، وتُحصل منهم قيمة الكشف، لمحاولته إقناعها بتسريع دخوله للطبيب، لأن حالته خطرة، ولم تسمح له بالدخول إلا بمطالبتها من جانب هذا العدد الكبير من المرضى بإدخاله نظراً لحالته السيئة التي يبدو عليها.

حكى للطبيب ما حدث له، وهو يُخبره أنها المرة الأولى التي يتعرض فيها لمثل هذا الموقف المفاجئ، ولم يتبين للطبيب فيما يخصه من الناحية الطبية ما يدعوا

للخوف أو للقلق، وبعد فراغه من توقيع الكشف الطبي طمأنه، واستطرد قائلاً : بس نعمل الأشعة دي عشان نطمن اكتر. وبمجرد خروجه ذهب إلى مركز الأشعة، ويساوره شك داخلي لم يُفصح عنه لطبيبه المعالج، وأن في الأمر شيئاً لم يتبين للطبيب، ولكن ستظهره الأشعة وبجلاء واضح، ليتضح له بمجرد الفراغ من إجراء الفحوصات، وعلى لسان طبيب الأشعة، أن ما يُدار في نفسه مجرد شكوك وظنون واهية، وأن صدره سليماً مُعافى لا تسكنه أي نوع من الأمراض الصدرية. كانت سعادته لا توصف، وهو يحمل نتيجة الفحوصات، التي أكد على صدقها - بمجرد أن رءاها - طبيب الصدر المعالج، ليخرج من عنده فرحاً ومسروراً لتأكده أن ما حدث له مجرد عارض ليس له أي تبعات على سلامة جسده، وتلك الفرحة ما دفعته للاعتذار لهذه الفتاة التي نهرها سابقا بقوله : آسف يا أستاذة، كان غصب عني، كنت تعبان جداً، وحاسس إني حالتي

خطرة، ولكن الحمد لله الدكتور طمني، فقبلت منه على الفور اعتذاره، قائلة : حمداً لله على السلامة.

خرج من العيادة قاصداً بيته، وكلما اقترب من البيت تناقصت الفرحة التي كانت تغمره، لسوء الأوضاع النفسية التي يعيشها ويُعانيها منذ زمن طويل، بسبب زوجته وأولاده، فرغم علمهم بهذا العارض الصحي الذي حدث له، وما تبعه من إجراءات الكشف الطبي، وإجراء الفحوصات اللازمة، إلا أنه لم يكترث له أحد حين دخوله البيت، وهو يحمل الأشعة الطبية في يديه، وأخذ يحدق في وجه زوجته وأولاده، وهم يشاهدون التلفاز، وتأمل وهو يسأل نفسه : أين السعادة التي كانت تغمرني منذ قليل ؟ فكأن السعادة تناديه وهو ينظر إلى باب بيته، وتخبره أنها غير مسموح لها بالـــدخول. همـــس في أذن ابنتـــه الكـــبرى، المولعـــة بمشاهدة المسلسلات التركية قائلاً : انا عملت الأشعة،

وجبت نتيجتها حالاً. فكأنه لم يقل شيئاً فحالة الانسجام الروحي التي تغمرها حال مشاهدتها مسلسها المفضل جعلها لا تسمع ما يقوله والدها، حتى أنها لم تشعر بجلوسه بجانبها، فهم واقفاً وتوجه إلى جانب زوجته، وينظر إليها نظرة الظمآن إلى الماء البارد، متمنياً أن يسمعها وهي تسأل عن حاله، وماذا قال الطبيب له؟، ولمّا فعلت ما هو متوقع وما هو معتاد منها، ولم تسأله، جلس بجانبها يستجدي عطفها، ولو بكلمة وهو يقول لها بصوت حان مجني عليه : الحمد لله نتيجة الفحوصات طلعت، فردت عليه من غير اهتمام الحمد لله، وعاودت النظر إلى التلفاز، والمسليات في يديها تقذف بها في فمها المتحرك دون صوت، فاستجدى عطفها مرة أخرى لعله يسمع منها بعض الكلمات الرقيقة قائلاً لها : والدكتور طمني وقالي انت كويس وحالتك مطمئنة، فلم ترد عليه وهي تضحك بصوت عال – كما أبناءها – لهذا المشهد

الكوميـدي الـذي مـر أمـامهم، ليعـاود نفـس الكـلام فتجيبـه متأففـة: عارفـه والله انـك كـويس، ومفكـش حاجه، ثواني بقى عشان نسمع المسلسل، ولا قوم ادخل أوضتك نام، فيبهت من ردها الفاتر والمحُرج، وتنطلق النظرات من عينيه صوب أبنائه الجالسين أمام التلفاز، وكأن على رؤوسهم الطير، لعل أحدهم أن يروي ظمأه العاطفي، ولو بكلمة يعبرون بها عن حبهم له، ويسألون عن حاله، وماذا قال الطبيب له، فلم تجد نظراته نفعاً، والكل منسجم تماماً مع المسلسل، وكأنهم هم من قاموا بتمثيل الأدوار التمثيلية التي يشاهدونها، فهم واقفاً وحاول جاهداً - بفشل ذريع - أن يوجه لهم اللوم لحالة التجاهل الرهيبة نحوه، فوجد الصراخ والعويل من الجميع، وفي نفس واحد، والكل يطلب منه إرجاء الكلام لحين انتهاء المسلسل، دلف إلى حجرته مبتعداً ومنسحباً من موقف الخزي والجحود من جانب زوجته وأولاده، واستلقى على سريره ووضع يديه

خلف رأسه، وهو يقارن حالته البئيسة تلك، بحالة السعادة التي كان عليها منذ وقت قصير، وأخذ يتأمل ما آلت إليه الظروف لتصبح بهذا الشكل السئ، الذي لم يعد يستطع تحمله، بسبب زوجته التي لم يبخل عليها بأي شيء تطلبه، بل وسعيه الدءوب لمحاولة إرضاءها، وكذا الحال بالنسبة لابنائه الذي ينفق جسده رخيصاً من أجلهم، ومن أجل سعادتهم، وظل يفكر في مآلات الأمور حتى أغمض النوم عينيه، ليرتاح من جهد يوم طويل مليء بالقلق والتعب، ولم يفق من نومه إلا على صوت صراخ عال مفزع، فنهض من على سريره، وجرى نحو باب الحجرة خائفاً وجلاً أن يكون أحد أفراد الأسرة أصابه مكروه أو سوء. فيفاجأ وهو يرى بأم عينيه أن سبب هذا الصراخ والعويل هدفاً سُجل في مباراة كرة قدم، فيصيبه من الأسى والإحباط ما يجعله يستلق على سريره، خوفاً أن يستلق على الأرض حين

أعلنت قدميه عجزها عن حمله نتيجة أفعال رعيته. وهو يتمتم قول الشاعر :

ومتى يبلغ البنيان يوماً كماله

إذا كنت تبني وغيرك يهدم.

واستطاع وهو على حالته تلك، أن يقنع نفسه بضرورة الاستسلام لهذا الوضع القائم، ورفع رايته البيضاء كتعبير قوي وأكيد عن عجزه تغيير واقع مؤلم ومزمن، وغير مرحب به، وذلك تجنباً لحدوث عارض مرضى، مثل ما حدث له في يومه هذا، ولكن ربما أن قراره الهادف إلى راحة نفسه، وحماية جسده من الأسقام قد جاء بعد فوات الأوان، ففي صبيحة اليوم الذي اتخذ قراره هذا، وأثناء ذهابه لعمله طرأت عليه نفس الأعراض التي ظهرت عليه بالأمس القريب، ولم يختلف قرار اليوم عن قراره البارحة، فعلى الفور وبعد إنتهاء هذه الأزمة الصحية المفاجئة، توجه إلى نفس

الطبيب ظناً منه عدم دقة التشخيص في المرة السابقة، وعلى الفور أشار عليه الطبيب، بعرض نفسه على أحد اطباء القلب، وفي التو كان طبيب القلب وجهته، وحكى له ما حكاه مرتين لطبيب الصدر ، فكان رسم القلب إثباتاً وتأكيداً لإصابته، بضيق في أحد الشرايين التاجية، وكان هذا التأكيد بمرضه واحتياجه إلى إجراء عملية قسطرة علاجية، باعثاً لأحزان دفينة في قلبه، ربما هذه الأحزان هي السبب الرئيسي لانسداد أحد شرايينه.

خرج من عند الطبيب يكتنفه الحزن، ويحتويها لإحباط، ويتملكه الأسى، ويحيطه الخوف، وفي أثناء سيره نحو بيته وجد نفسه يُغير وجهته، وهو يتساءل لماذا أذهب للبيت؟ ومن سأشكوا إليه ما حل بي؟ ورغم المدة الطويلة التي جلسها على ضفاف نهر النيل، إلا أنه رجع إلى بيته، وبمجرد دخوله البيت إذا به يزداد

إحباطاً وأسفاً على حاله، إذ أن زوجته وأولاده غطوا في نوم عميق، غير عابئين بذهابه لطبيب القلب، وتأخره كثيراً خارج البيت، وعلى الفور تذكر العهد الذي قطعه على نفسه، حال رفعه رايته البيضاء، واستسلامه لواقعه المؤلم المرير، ودخل حجرته التي ينام فيها وحده، منذ سنوات طوال، وقد استسلم مسبقاً لهذا الحال أمام جبروت زوجته، ورغبتها الأكيدة في النوم بعيداً عنه.

في الصباح الباكر تناول الفتات من الطعام، وهو يفكر في مرضه الجديد، وكيف يتسنى له التعامل معه؟ وأبت نفسه إلا أن يخبر زوجته بعد عجزه عن كتمان ما بداخله قائلاً : روحت لدكتور القلب امبارح

: يا ريتك أخدتنا معاك، اهو قلبنا برده وجعنا

: انتِ مفيش في قلبك رحمة، ولا انتظرتيني امبارح عشان تطمني عليا، وتعرفي إني هعمل عملية.

: عملية إيه ؟ انت بتصدق كلام الدكاترة، دا حتى الطب بقى تجارة، كل اللي يكشف عند دكتور يقوله عملية.

:أُمال يعني أصدق جهلك

:لأ صدق الدكاترة، واستطردت قائلة : وبعدين ايه يعني لما تعمل عملية، لا انت أول واحد، ولا آخر واحد

:فعلاً عدم الكلام معاكِ أفضل

:ايوه أفضل، يا ريتك بقى تثبت على كده وتريحنا بِسُكاتك

كعادته في كل مرة يتشاجر فيها مع زوجته، وبعد أن تُسمعه وابلاً من الكلام المسموم، وتوجه إليه فيضاً من الإهانات، لا يجد شيئاً يفعله وهو في موقف الضعف والاستكانة، والخذلان المريب من جانب أولاده،

إلا الخروج من المنزل، وهو ينظر إليهم لعل منهم من ينطق، ولو بكلمة حق، ويطلب منها خفض صوتها، وعدم توجيه الإهانات إلى والدهم.

شرع وبعد وهلة من خروجه، التوجه لمستشفى التأمين الصحي، التابع لها عمله، ليبدأ طريق التداوي المبهم تماماً بالنسبة له، ويدخل على الموظف المختص، فيحدد له ميعاداً، للعرض على اللجنة الطبية بعد شهر، فيتعجب بشدة من هذا الميعاد البعيد قائلاً : شهر دا معاد بعيد جدا يا أستاذ.

:العرض عاللجنة الطبية بيكون بالدور، وانت دورك بعد شهر

:أنا تعبان جداً، ومش بقدر أمشي

:خلاص اقعد في البيت

:وشغلي ؟ هياخدوني غياب.

:طب وانا اعملك ايه، ده دورك، شايف أنه بعيد ومش هتقدر تستحمل يبقى اعمل العملية على حسابك، وعلى رأي المثل هِين قرشك ومتهنش نفسك.

:على حسابي !! انا موظف حكومي مرتبي كله مش محصل ٥٠٠٠ جنيه، وعندي أسرة وأولاد، وبعدين فين الفلوس إللي عاوزني أهنها، دا يا دووب إللي جاي على أد الرايح، وماشيه بستر ربنا وكرمه.

:يا أستاذ أنا هنا موظف تأمين صحي، الكلام ده قوله في وزارة التضامن.

لم يجد بداً من الانصياع لكلام وتوجيهات موظف التأمين الصحي، والقبول بميعاد عرضه على اللجنة الطبية بعد شهر كامل، وكان عليه أن يذهب إلى عمله، وهو على حالته المرضية تلك، ولم يترفق مديره في العمل معه، رغم إخباره بما يعانيه من آلام وتعب،

وأزمة حادة تعاوده بين الحين والآخر. تحامل على نفسه طيلة شهر كامل، لا يُسري عنه حدة آلامه وأحزانه وتعبه إلا أخته، التي يذهب إليها كل اسبوع ليواسيها، ويخفف عنها أحزانها الملازمة لها، بعد موت زوجها، وبعده بفترة قصيرة ابنها ابن السادسة عشر من العمر، ورغم ما يسكنه من أحزان تئن الجبال من حملها بسبب التجاهل المتعمد، وعدم الإحساس به من جانب أسرته، إلا أنه وبعاطفته الجياشة، وإحساسه المرهف، لم يسمح لنفسه التحدث إلى أخته بأي من مشاكله الكثيرة والمثيرة، فمصابها الجلل بفقد زوجها، ومن بعده ابنها الشاب الحالم في سن الزهور، يمنعه من الإفصاح لها عن وجود مشكلة، بل إنه وبعطائه الفياض، وفكره المتألق، ومواساته الصادقة، كان دأبه حال وجوده مع أخته أن يواسيها ويخفف عنها، ويصبرها، رغم حاجته الأكيدة لمن يفعل ذلك معه.

جاء دوره للعرض على اللجنة الطبية بعد انقضاء مدة الشهر، وأمام أعضاء اللجنة الثلاثية، تبادل الحديث معهم وأخبرهم بتلك الأزمة التي يتعرض لها بين الفينة والفينة، فطلبوا منه إحضار بعض التحاليل والفحوصات لإجراء العملية، والحضور ثانية بعد اسبوع فدفعه ألم التعب الذي يشعر به وقت الأزمة إلى القول يا دكتور أنا تعبان، وبتجيلي الأزمة بحس اني روحي بتطلع.

:طب وانا اعملك ايه، لازم تعمل التحاليل والأشعة دي قبل العملية.

:ممكن اعملهم النهاردة واجبهم لحضرتك بكره ؟

: يا سيدي اللجنة بتنعقد مرة واحدة في الأسبوع، اعمل المطلوب وتعالى الأسبوع الجاي. استسلم لكلام الأطباء، وخرج من المستشفى ليبدأ طريق البحث عن

التداوي، وبدون مواساة أو تشجيع أو تخفيف من أحد، مضى. وحيداً في طريقه الوعر، المليء بالعقبات سواء مادية إذا ما نظر إلى راتبه الضعيف جداً مقارنة بوزارات أخرى لم تصنف بهذا الوصف المحبط وأنها وزارة خدمية، والعقبات المعنوية المتمثلة في زوجته وأولاده، وتجاهلهم له ولما يعانيه.

مضى الأسبوع كأنه ساعة من نهار، وقدم الفحوصات المطلوبة إلى اللجنة الطبية، والتي بدورها أحالته إلى أحد الموظفين لتحديد ميعاد إجراء العملية، ووقف أمام الموظف يُحييه بجميل الكلمات، وبصادق الدعوات، آملاً أن يكون ميعاد إجراء العملية قريباً، فيخبره الموظف المختص أن يحضر بعد شهر، فإذا به يصرخ في وجهه قائلاً : شهر ؟ كده حرام عليكو، عشان أدخل اللجنة الطبية انتظرت شهر، وعشان أعمل العملية أنتظر شهر تاني.

:يا أستاذ واضح إنك أول مره تعمل عملية تبع التأمين الصحي

:آه أول مرة

:طيب اعرف بقى إني اللي بيتم معاك ده هو الطبيعي في التأمين الصحي، أعداد الناس اللي لها عمليات قلب كبير جدا، فكل واحد بياخد دوره، واللي مش عجبه يروح يعمل العملية على حسابه في مستشفى خاصه.

:طب ولو واحد تعبان وحالته المادية زي حالاتي متسمحش، يعمل ايه؟

:ينتظر يا أستاذ، ويستحمل شوية، والشهر بيعدي بسرعة، واستطرد قائلاً : وبعدين احنا أحسن من غيرنا، هوه حضرتك مش شايف إللي بيحصل في غزة، واللي بيعملوه فيها

:شايف طبعاً، ربنا ينتقم منهم، إمبارح المجرمين ضربوا مستشفى المعمداني وقتلوا ٧٠٠ فلسطيني مرة واحدة.

:طب ما انت عارف وواخد بالك اهوه، اصبر بقى واحمد ربك على إللي انت فيه.

كالعادة أعلن حالة الاستسلام مجدداً، ومشى من أمام الموظف، منسحباً كما ينسحب المهزوم، وتلقاه أحد المرضى وهو يربت على كتفه قائلاً : متزعلش نفسك، للأسف هو النظام كده في التأمين الصحي. فأومأ برأسه ومضى في طريقه، وبصره يرمق هذا العدد الكبير من مرضى القلب، والكآبة تكسوا وجوههم ، وتعكس حالة الاستكانة والتسليم لواقع مؤلم، والكل يفصح عن شكواه من الزحام الشديد، ومُدد الانتظار البعيدة، التي تزيد من آلامهم. فكأن المشهد قد خفف عنه بعض الشيء، وراح يُصبر نفسه ويقنعها بضرورة الصبر والتحمل.

حان وقت إجراء العملية، وطُلب منه خلع ملابسه، وارتداء زي العمليات، وينتابه شعور بالخوف لهذا

المشهد الذي لم يألفه من قبل، وزاد خوفه حين نام على عجلة متحركة، وأدخلوه حجرة العمليات وأجريت العملية التي لم تستغرق نصف الساعة، ووجد الطبيب يسأله : انت مُدخن؟

:لأ. .أنا مش مُدخن.

:طب حد في العيلة والدك أو ولدتك كان مريض قلب؟

:لا ابدا

:غريبة

:خير يا دكتور، طمني

:كده انت لازم تعمل عملية قلب مفتوح.

:قلب مفتوح ؟

:للأسف عندك ٣ شرايين مسدودين انسداد كامل، ولازم تعمل العملية في أسرع وقت.

وقع الخبر علي سمعه كالصاعقة، وهو يردد إنا لله وإنا إليه راجعون، وخرج من حجرة العمليات والممرضة تسأله : مين معاك من أهلك يا بابا ؟ فكان واقع هذا السؤال أشد إيلاماً من كلام الطبيب، حين أخبره بحاجته لهذه العملية الخطيرة، ولم يُجبها على سؤالها إلا بدموع ملتهبة، خرجت من قلب موجوع، إذ أنه لم يحضر معه أحد.

خرج من المستشفى وحيداً، يسير ببطء شديد، وعينه الدامعة والباكية تدور على المرضى من أمثاله، فهذا مريض زوجته بجانبه تربت عليه بحنان جميل، وتدمع عيناها ترأفاً وتعاطفاً لحال زوجها، وتأخذ بيديه وهي تطلب منه برفق وترفق مصحوبين بالدموع أن يستند عليها، وهذا مريض آخر حوله أبناؤه يقبلون يديه، ويطلقون أيديهم على جسده بحنان مطلق، وهم

يرددون آيات الحمد والشكر أن نجاه الله وشفاه. لم يجد من على شاكلته الوحيدة إلا رجلاً مريضاً رءاه يجلس وحده، فقصده على الفور، ظناً منه أن حالهما واحد، وأنه يعاني مثل معاناته، فقصد مجالسته ومحادثته، لعل كل منهما يُخفف الحزن عن الأخر، ولم يلبث أن تركه ومضى. حين أخبره الرجل مبتسماً، انه ليس وحده، بل معه زوجته وأولاده، غير أن ابنه يُحضر السيارة للرجوع لبيتهم.

أكمل سيره، بعد اقتناعه التام، أنه المريض الوحيد الذي لم يصاحبه أحد من أفراد أسرته، وقصد الذهاب إلى أخته، وهي الوحيدة التي تحنو عليه، ولم يجد بُداً من مصارحتها بما ألَم به، في الوقت الذي فضحته دموعه، وهي تتساقط بشدة من عينيه، وحاول جاهداً أن يُخفي أمره عنها، نظراً لظروفها القاسية، إلا أن إحساسها المرهف به، جعله يستسلم لإلحاحها، وحكى

لها حالته المرضية، فوجد مشهداً افتقده منذ وفاة أمه وأبيه، والدموع تنهمر من عيني أخته بشده، وعطفها الفياض ينساب بحنان على جسده، المتعطش لمثل هذا الحنان المحروم منه على مدار سنوات طوال.

شرع في تجهيز نفسه لإجراء عملية القلب المفتوح، وتغيير الشرايين التاجية، وخلال تلك الفترة زادت حدة الأوجاع على جسده، وفقد الكثير من وزنه، منذ أن أخبر بضرورة إجراء قلب مفتوح، حتى جاء ميعاد إجراء العملية، فدخل حجرة العمليات، وهو مستاء لطلب إدارة المستشفى بالتوقيع قبل الدخول، على إقرار بتحمل مسئولية العملية، ومكتوب في الإقرار أن العملية تصنيفها خطير، دخل إلى حجرة العمليات، والأطباء ينظرون إليه بابتسامات جميلة، تبعث بالطمأنينة على نفسه الحائرة، والوجلة من هذه العملية الكبيرة والخطيرة.

سبع ساعات هي مدة إجراء العملية، خرج بعدها إلى غرفة الرعاية المركزة، ليجد أخته وقطعة جسده، تُقبل

عليه وتُقبل يديه، دون صدور أي صوت منها إلا البكاء الشديد للحالة التي هو عليها، وراحت الدموع تنساب من عينيه هو الأخر لمجرد رؤيتها ، وشعر أن الألم يتبدد من جسده وهو يجد نفسه ليس وحيداً في هذا الموقف، وفوجئ وهو على حالته تلك بوجود زوجته وأولاده، والذين حضروا فقط لمجرد حفظ ماء الوجه، حين علمت زوجته بحضور جارتها وزوجها إلى المستشفى لتقديم يد العون، وعرض خدماتهما.

خرج من المستشفى بعد أسبوع قضاه فيها، لم تحضر. زوجته إلا يوم العملية، واصطحبته أخته إلى بيته، ومكثت معه يومين حتى اطمأنت عليه، لتتركه بعدها يعاني جحود زوجته، وعقوق أولاده، فيذوق طعم الذل، وهو مستلق على سريره، وآهات الألم التي تنطلق

من فمه لم يعبأ لها أحد، وصرخات الاستغاثة في ثلث الليل الأخير لم تسمعها أسرته الجاحدة، إلا حين تُعبر زوجته عن انزجاعها لصوته العالى، وتنهره لذلك، فلا يفعل شيئاً إلا الدعاء عليها سراً.

ظل الجحود والإنكار يمثلان الوضع القائم في حياته، وحالة الكآبة هي السمة المميزة في بيته، وما كان يظن أو يتوقع تهرب أولاده منه حتى لا يصطحبه أي منهم عند الذهاب للطبيب، فيتحامل على نفسه، ويعرض حياته للخطر، حال عزمه الذهاب وحيداً إلى الطبيب، ليفاجأ هناك بالسؤال الذي ينخر قلبه : مين معاك ؟ ولما لم يستطع الرد، تولت أخته الإجابة، والتي حضرت لتوها، حينما أخبرتها زوجته أنه ذهب للطبيب.

ظل يتماثل للشفاء طيلة ثلاثة أشهر، استطاعت أسرته أن تقنعه أنه وحيد رغم أنهم يعيشون معه تحت سقف واحد، ورغم أنه مصدر دخلهم الوحيد، وعاود

بعد مدة الثلاثة أشهر الذهاب إلى عمله، وبعد شهر من عودته للعمل، عاودته نفس الأعراض المرضية التي كانت سبباً في شق صدره، وإجراء عملية القلب المفتوح، وتغيير ثلاثة شرايين مرة واحدة، وكاد عقل الطبيب أن يطيش، وذرفت الدموع من عينيه، وأمامه ما يثبت يقيناً فشل العملية التي أجراها له، رغم نجاحها لمدة مائة يوم، وأثناء توجيه الأسئلة المتكررة: هل أنت مدخن ؟ هل أحد أبويك كان مصاباً بأمراض في القلب ؟ ولما لم يصدر منه صوتاً، ولما لم يستطع أن يبوح بالإجابة الصحيحة، غمضت عيناه مودعاً دُنيا حقيرة كانت زوجته وأولاده سبباً لفراقها.

* * * * * *

المحتويات

الإهداء 3
□□ مشاعر ٥
□□كاميليا ١٤
□□ الوحيد ٢٠
□□ الشتيتان ٣٠
□□ التاج ٤٩
□□ وجع قلب..... ٦٠

002 - 01061635162
002 - 01503570075
ranyhmtwlyblat@gmail.com

جريمة حب

إنهم يأخذون الخير، ويلفظون الشر . يأخذون الورود، ويرمون الأشواك . يُضمرون في أنفسهم الخبيثة التنكيل والإنتقام، ويُظهرون لك التقدير والإحترام . يُباركون لك الخير بلسان كله كذب وخداع، ومن قلوبهم يتمنون لك الضياع . هكذا أصبحت الدنيا، وهكذا أصبح حال أصحابها . فلم يعُد فيها إلا القليل من أصحاب القلوب الطاهرة، وهم شواذ متناثرون في أرجاء المعمورة الخربة بأصحابها . قد تجدهم في الصحاري البعيدة حيث البعد عن الأشرار، فقد أدركوا وعرفوا أنه لا عيش لهم بين بشر، هم في الحقيقة ذئاب على أجسادهم ثياب .

نور الدين البرقاشي

تصميم منى شومان

البديع العربي
01061635162